



من الجهاد البحري في كتابات المؤرخ الجزائري الدكتور مولاي بلحميسي

من إعداد: البروفيسور بوضرساية بوعزة

جامعة الجزائر 2

التعريف بالمؤرخ مولاي بلحميسي :

ما عدا تسعة طلبة كانوا جزائريين، بعد الاستقلال وبالتحديد سنة 1963 تحصل على منحة للخارج حيث اختار إحدى الجامعات الفرنسية لمواصلة الدراسات العليا وهي جامعة إكس آن بروفانس (Aix en provence) ومنها تحصل على شهادة الدراسات العليا التي مكنته من الاستمرار في ميدان البحث العلمي حيث نال شهادة دكتوراه الدرجة الثالثة سنة 1972، التي فتحت له أبواب مواصلة الدراسة من أجل الحصول على أعلى درجة علمية وكان له ما أراد ففي سنة 1986 ومن جامعة بوردو الفرنسية كانت آخر شهادة علمية نالها وهي شهادة دكتوراه الدولة، ليعود إلى الجزائر ويلتحق بالجامعة أستاذا محاضرا للتاريخ الحديث حيث تخصص في تاريخ الجزائر الحديث في الفترة العثمانية حيث انصبت مؤلفاته تقريبا حول الجهاد البحري أو ما اصطلح عليه بالبحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، وأكملت له عدة مهام علمية وإدارية منها مديرا لمعهد التاريخ سنة 1986 ونائبا لرئيس الجمعية الدولية لمؤرخي البحر الأبيض المتوسط، ثم أصبح رئيسا للاتحاد الوطني للزوايا الدينية في الجزائر ما بين 2003 و2004 كما تم تعيينه رئيسا لجامعة المغرب العربي التي كان مقرها بالعاصمة الليبية طرابلس هذا، إلى جانب انتخابه رئيسا للمجلس العلمي للمعهد الوطني للآثار، وافته المنية وهو في السبعينيات من عمره وذلك سنة 2009.⁷

لقد أثار موضوع الجهاد البحري من بداية القرن 16 إلى منتصف القرن 19 اهتماما كبيرا عند الغربيين فأسال وديانا من الحبر حتى «ملأ الدنيا وشغل الناس» فلا تحصى كتبهم ودراساتهم ومقالاتهم في هذا الموضوع بحيث أطنبوا

ولد المؤرخ والباحث الأكاديمي مولاي بلحميسي بمدينة مازونة¹ التابعة حاليا لولاية معسكر² بالغرب الجزائري خلال الثلاثينات من القرن العشرين، في ظروف صعبة بالنسبة لكل الجزائريين، كان تعليمه للحروف الأولى في الكتابات القرآنية، ليلتحق بالمدرسة الابتدائية سنة 1936 وبقي يتابع التعليم الابتدائي إلى غاية 15 جوان 1943 وهي السنة التي تحصل فيها على شهادة التعليم الابتدائي التحضيرية، في وقت لم يكن في متناول أبناء الجزائر الوصول إلى مراحل متقدمة في هذا السلك الذي سيطرت عليه الإدارة الاستعمارية الفرنسية، حيث قيده بقوانين وقرارات ومراسيم يصعب على الجزائريين (الأهلي) اجتيازها.³

انتقل إلى مدينة تلمسان⁴ لإكمال دراسته الثانوية حيث التحق بالثانوية الفرنسية الإسلامية و فيها تحصل على شهادة البكالوريا التي سمحت له بالانتقال إلى العاصمة الجزائر لإتمام الدراسات العليا وهذا ما مكّنه من الحصول على دبلوم معهد الدراسات العليا الإسلامية وذلك سنة 1954 التي واكبت اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954 المباركة، هذه الشهادة سمحت له من الولوج إلى مدرجات جامعة الجزائر آنذاك⁵ قضى فيها أربع سنوات كاملة اختص خلالها في تاريخ المشرق الإسلامي وكان من بين الأساتذة الذين درسوه من المستشرقين والمستعربين الفرنسيين ماريوس كنار Mariauce quinar و روجي لوتورنو Roger letournau هذا الأخير الذي كان متخصصا في تاريخ المغرب الإسلامي بجامعة الجزائر آنذاك.⁶

في سنة 1958 تحصل على إجازة في الآداب بتقدير قريب من الجيد من مجموع ثلاثمائة طالب الأغلبية منهم فرنسيون



إن الجهاد البحري عند العرب والمسلمين، والقرصنة عند الغربيين المسيحيين من أهم مواضيع تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، لما له من علاقة بالمغرب الأوسط¹¹ على العموم وبالعاصمة الجزائر على الخصوص وقد ذاع صيتها وتزايد طيلة الحقبة العثمانية لموقعها الجغرافي الممتاز وقواتها البحرية الضاربة والصائلة خاصة بعد عام 1529 تاريخ استيلاء خير الدين على «الباستيون» أي (الحصن Bastion)، وتأسيس المرسى الذي جمع بين التجارة ومباشرة الجهاد البحري.

لقد خلط الباحثون الغربيون عمدا بين الجهاد البحري والقرصنة التي هي في الأصل اللصوصية البحرية، مع أن الفرق واضح، فالقرصان يبحر لحسابه الخاص ولا يحتاج إلى إذن من حاكم أو منظمة فهو مثل قطاع الطرق في الفياقي والقفار وعمله فردي فإن أصابته نكبة أو مصيبة لا أحد يغيثه، ولم تكن اللصوصية البحرية مبنية على قواعد وأسس مثل الغزو أو الجهاد البحري عند المسلمين.

فالغازي من الجند المنظم يعمل تحت إشراف السلطات ومراقبتها يكلف بمهاجمة أجفان بعض الدول المسيحية المعادية ويتحاشى الأخرى وفقا للمعاهدات المبرمة بين الطرفين مقابل تقاضيه نصيبا معيناً من الغنائم، والجهاد البحري عند الجزائريين خلال هذه الحقبة بداية من القرن السادس عشر الميلادي كان عملا دينيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

كان العرب المسلمون المجاهدون لا يدخلون البحر إلا بأسطول منظم ومسلح وبرجال محنكين، وهذا ما أوردته إحدى المصادر المعاصرة لمرحلة الجهاد البحري وهو محمد بن محمد البدري التلمساني متحدثا عن حسن آغا خليفة خير الدين بقوله: «..فأنشأ إحدى وثلاثين غليظة¹²... فأشتدّ بذلك وطأته على أهل إسبانيا واحتوى على كثير من أجفانهم وعاث في أطراف سواحلهم وفعل بهم ما كان يفعل خير الدين بهم أو أكثر...»¹³.

إن الجهاد البحري موضوع أساسي ومهم في تاريخنا العربي الإسلامي، وهو جدير بالدراسة والاهتمام لما لعبه من دور بارز في مواجهة الحملات الصليبية ضد دول

وأفراطوا ولم يعرف حدّ لشططهم. وقابل ذلك فتور المؤرخين المسلمين عموما والجزائريين على وجه الخصوص فشحت أقلامهم وقلت أخبار الجهاد البحري في مؤلفاتهم وكأن الجهاد برا أفضل وأشرف من الجهاد بحرا⁸.

هكذا شاعت أطروحات الباحثين الغربيين وذاعت رواياتهم مضللة محترفة مشوهة ولإثبات الحقيقة التاريخية وإنصاف تاريخ أجدادنا المجاهدين والرد على مرتكبي الأغلاط المقصودة قضى الدكتور مولاي بلحميسي ما يقرب من ثلاثين سنة مدرسا بالجامعة وباحثا في الشؤون البحر الأبيض المتوسط وصراع الجزائر في العهد العثماني مع الدول المسيحية المتزعمة لحروب صليبية استهدفت المغرب العربي عموما والسواحل الجزائرية بالتحديد بعد سقوط الأندلس سنة 1492⁹.

خصص الدكتور بلحميسي رسالته الأولى في تحقيق كتاب غزوات عروج وخير الدين (مخطوط باريس 1972) على أن تكون دكتوراه الدولة في البحرية والجهاد البحري في الجزائر خلال الفترة العثمانية¹⁰.

بدأ الباحث والمؤرخ مولاي بلحميسي مدة عشر سنوات في اصطيد الوثائق «المدفونة» وما أكثرها في دور المحفوظات وأرشيف البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط فهي تكتنم أسراراً وحقائق من تقارير ورسائل ومذكرات وصفقات تجارية وقوائم للأسرى ووصف لمعارك بحرية ولوحات لأمر الفنانين ومعاهدات أفادت الكثير وسمحت بتغيير الرؤى السابقة وحتى يتتبع القارئ مراحل الجهاد البحري الذي حملت لواءه الجزائر وأساراه لابد من الوقوف على ما يلي:

1- التفريق بين الجهاد البحري والقرصنة .

2- كيفية تنظيم عمليات الجهاد.

3- تحديد مناطق العمليات الجهادية .

4- وطيس الحرب أو اقتحام مراكب العدو

5- النتائج أي الغنائم المادية والبشرية

6- أسباب الجهاد البحري في نظر المسلمين ونظر

الغربيين



التي جعلوا منها عاصمة لهم، وكانت نقطة البداية بالنسبة لهم خلال هذه الحقبة التاريخية من فترة الحكم العثماني للجزائر ما بين 1516-1830، وقد اعتمد الدكتور مولاي بلحميسي في كتاباته عن الجهاد البحري على العديد من المصادر الأساسية مستشهدا ببعض ما ورد فيها من النصوص ومما ذكره في هذا الصدد شهادة الشيخ أبو الحسن على بن محمد التمجروطي المتوفي عام 1003 هـ / 1594م التي جاءت في رحلته إلى الأستانة والعودة منها عام 998هـ/1590م، فيقول في شهادته من خلال هذه الرحلة مايلي: «.. أعجبت بعدد السفن في المرسى وبشجاعة الرياس وصبرهم وحدة ذكائهم... فهم نار على النار في أقطارهم يزرعون الرعب في قلوبهم.. وهم يفوقون بكثير رياس القسطنطينية ويخافهم العدو أكثر من غيرهم..»¹⁷.

وهو ما جعل مدينة الجزائر عاصمة الإيالة¹⁸ ذات شأن بقوله «.. كانت مدينتهم أرفع شأنًا وأكثر سكانًا من جميع مدن المغرب حتى سميت بإسطمبول الصغيرة ..»¹⁹.

وفي الوقت الذي استحوذت فيه الكتابات الأجنبية على أكبر قدر من الاهتمام بالجهاد البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط يرى الدكتور مولاي بلحميسي أن الكتابات العربية حول الموضوع تكاد تكون قليلة إن لم تكن معدومة تماما، وهي الكتابات التي عاصر أصحابها هذه القضية وما برز منها إلا كتاب غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول عاش في القرن السادس عشر وهو ما جعله يتساءل بقوله «.. كأن شؤون البحر غير جديرة بأن تدون أو كأن المعارك برا أشرف منها بحرا ..»²⁰.

لقد حاول الدكتور مولاي بلحميسي أن يفرق بين مضمون القرصنة ومفهوم الجهاد البحري الذي أسماه بالغزو البحري، فهو يرى أن كلمة قرصنة هي لفظة أعجمية لم يرد ذكرها في المعاجم العربية القديمة ولا الحديثة، وبالتالي فهي كلمة إيطالية «كورصة corsa» والتي تعني الجري ويرى أن هناك احتمال ثاني في أن تكون هذه الكلمة هي الكلمة الإيطالية «كورسارو corsaro» التي تعني القرصان أو لص البحر.

ومن هذه الاحتمالات يتبين أن كلمة قرصنة كلمة دخيلة

المغرب العربي المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وساهم بقدر كبير في دفع هذه الدول للحفاظ على معالم الحضارة العربية في هذه المنطقة المتوسطية.

من هذا المنطلق التاريخي ظهرت كتابات تاريخية جزائرية معاصرة جادة، اهتمت بالجهاد البحري في الجزائر، كان أبرزها محاولات المؤرخ الجزائري المعاصر الدكتور مولاي بلحميسي الذي تناول في كم من بحث الجهاد البحري وأهميته التاريخية.

إن موضوع الجهاد البحري لدى هذا المؤرخ كان شغله الشاغل، حيث جاءت إحدى أعماله بعنوان «الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر»، بين من خلالها أهمية الجهاد كواجب ديني ومهنة، والذي سماه جل الباحثين الغربيين بالقرصنة وهي كلمة لا تعكس العمل النبيل الذي كان يقوم به رياس البحر الجزائريون¹⁴ في حوض البحر المتوسط، ويعطي الدليل على أن الغرب المسيحي هو الذي مارس القرصنة فالمدن الساحلية الجزائرية المهمة سقطت في يد الإسبان منها مدينة وهران عام 1809 ومدينة بجاية عام 1510، وبالتالي فهو عمل قرصنة هذا إلى جانب تونس وطرابلس اللتان كانتا تخضعين بين الفينة والأخرى لنفس القرصنة المسيحيين¹⁵.

ومن جهة أخرى ربط هذه الأهمية بالدور الذي كانت تلعبه هذه المدن الساحلية في حمل لواء الجهاد البحري، فخير الدين تمكن عام 1529 من طرد النصارى من الباستيون (Bastion الحصن)، وحوله إلى مركز الانطلاق حملات الجهاد البحري، وكذلك كان الشأن بالنسبة لمدينة الجزائر، التي لم تكن ميناء للتجارة فحسب بل قاعدة أساسية للأسطول الجزائري الذي كان يقوم بمهمة الجهاد بحيث يقول في هذا الشأن ما يلي: «.. وكانت الجزائر لا ميناء تجارة فقط بل أضحت مرسى حرب وقاعدة هجوم ومأوى للأسطول الجزائري، فيها تدبر العمليات، ومنها تنطلق الأجفان لاصطياد غنائم العدو..»¹⁶.

لقد جعل هذا المؤرخ من القرن السادس عشر بداية عصر ذهبي للجهاد البحري في الجزائر، ومرّد ذلك هو الاهتمام المتزايد لحكام الجزائر العثمانيين بهذه المدينة



جانب ذكر ما جاء على لسان بروديل (Braudil) في المجلة الإفريقية عام 1928 حيث يقول: « وذكر باديا (Badilla) سنة 1547 أن الأسرى المسلمين إن كانوا فقراء اعتنقوا النصرانية وإن كانوا أغنياء دفعوا ما يطلب منهم للفداء وبقوا على دينهم»²⁵.

لقد برر الأستاذ مولاي بلحميسي الجهاد البحري على أنه رد فعل من طرف المسلمين ضد القرصنة البحرية التي كان يقوم بها النصارى والتي انحصرت في النهب والسلب والتخريب والأسر والقتل بحيث يؤكد على أن جل الكتاب الغربيين اعترفوا بالأضرار البالغة التي لحقت بالمسلمين من طرف النصارى من القرن الثاني عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر الميلادي واستشهد في ذلك بما ذكره دumas لاتري Latrie Demas، في مقدمة كتابه «علاقات إفريقية الشمالية وتجارها مع الدول المسيحية في العصور الوسطى»²⁶.

Relations et commerce de l'Afrique Septentrionale avec les Nations Chrétiennes au moyen âge Paris 1866.

هذه الدوافع جعلت الأستاذ بلحميسي يرى أن الجهاد البحري لدى المسلمين والقرصنة لدى المسيحيين نوع من الحرب البحرية المشروعة خاضتها كل الأمم حتى أن القوانين الملكية الفرنسية عام 1672 خصصت عشر الغنائم للأميرال الأكبر الفرنسي والخمس للملك²⁷.

وعن دوافع الجهاد البحري فالأستاذ مولاي بلحميسي يرى أن البحث عن الدواعي التي دفعت المسلمين إليه في القرن السادس عشر هي على نوعين: دواعي دينية ودواعي دنيوية.

لقد كانت فكرة الجهاد لازالت حية و راسخة في قلوب المسلمين لاسيما بعد احتلال شواطئ المغرب من طرف البرتغاليين والإسبان، وبعد سقوط الأندلس عام 1492، حيث عوّض الصليب بالهلال على أبراج غرناطة، وتحت طائلة الأذى والذل التحق عدد كبير من المسلمين بالمغرب العربي، وندب الشعراء الكارثة، وأفتى العلماء والفقهاء بأخذ الثأر، وحث الخطباء على قتال النصارى بجميع الوسائل، وهو

عن المغرب العربي والتي أصبح معناها فيما بعد الغزوات البحرية، وقد استدل المؤرخ مولاي بلحميسي في ذلك بابن خلدون الذي لم يذكر قط هذه اللفظة، إلى جانب أهم مصدر تاريخي هو لمؤلف مجهول صاحب غزوات عروج وخير الدين، الذي لم يتطرق هو الآخر إلى هذه الكلمة.

ويتساءل الأستاذ مولاي بلحميسي فيما إذا كانت القرصنة خاصة بالمسلمين وحدهم؟ أم لا؟.

في هذا الشأن يرى أن القرصنة إذا كانت عملا بحريا حسب رأي الكتاب الغربيين فإنها إذا لم تكن خاصة بالمسلمين وحدهم، فالإفرنج ساهموا فيها ومارسوها كذلك، ومدلولها لدى المسلمين يختلف عن غيرهم من الشعوب الأخرى فسكان المغرب العربي يسمونها جهادا بحريا وغيرهم من الشعوب البحرية في الضفة المسيحية يسمونها قرصنة²¹.

لقد استند في مبرراته في ذلك على مصادر أساسية منها كتاب غزوات عروج وخير الدين المشار إليه سابقا، و الذي جاء فيه مايلي: «... فلما رجع عروج، لقي جفنا من أجفان الكفار الغزوية من جزيرة رودس فوقع في الجانبين قتال عظيم واحتوى الكفار على المركب...»²².

ويضيف نفس المصدر ما يلي: «..ذهب وفد من أعيان الجزائر إلى القسطنطينية سنة 924هـ/ 1518م على متن أربعة أجفان يقترح على السلطان سليم الأول 1512م 1520م إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، وعند العودة كان القنصل المستقر بالقسطنطينية من قبل البنادقة أعطاهم كتابا يسميه أهل البحر بإسبرط يتضمن حمايتهم من كل ما يلقونه من أجفان العدو الحربية فحملوه معهم وسافروا...»²³.

كما ركز المؤرخ مولاي بلحميسي على قضية الأسرى المسلمين الذين كانوا سببا رئيسيا في الجهاد البحري في حوض البحر الأبيض المتوسط، ومما ذكره في الصدد ما يلي: «..كان القرن السادس عشر بمدينة ليفورن الإيطالية وهي مدينة ساحلية بإيطاليا تقع على البحر الأبيض، عدد كبير من الأسرى المسلمين وفيهم المغاربة وفيهم المصريون وفيهم الأتراك كانوا سقطوا في أيدي القراصنة الإفرنج...»²⁴ هذا إلى



ما رسّخ وجذّر فكرة الجهاد البحري أكثر فأكثر لدى سكان المغرب العربي²⁸ وخمس وعشرين مركبا حربيا عام 1581³⁴.

وفي تركيزه على البعد الديني لهذه العمليات الحربية البحرية، تطرق إلى مشاركة كل الشرائح الاجتماعية فيها كل حسب مقدرته، فصغار التجار والبلدية³⁵ كانوا يشتركون في شراء المراكب وتجهيزها، وحتى النساء كنّ يبعن زينتهن للمساهمة في الجهاد البحري، وهذا لا يعني أن الذين كانوا يركبون البحر يجهلون أسرارهم، بل العكس من ذلك تماما، فطائفة الرياس كانوا من الذين لهم دراية كبيرة بالملاحه وهذا إلى جانب المهارة والشجاعة والخبرة اللازمة، وهي الشروط التي تخول لصاحبها بأن يكون رياس مركب.

وكان يصاحب الرياس مجموعة من الاختصاصيين والفنيين من النجار إلى الجراح إلى مسؤول الحسابات المالية وكذلك ربان السفينة والقائم بخدمة المدافع، كما كانت الطاعة للرياس أمرا ضروريا لا يقبل المخالفة أو المناقشة³⁶.

وعن المناطق التي كانت عرضة للجهاد البحري خلال القرن السادس عشر فقد حصرها الأستاذ بلحميسي في سواحل البحر المتوسط حيث استطاعت المراكب الجزائرية من شقه، شرقا وغربا، وتمكنت من تخريب سواحل بلاد النصارى خاصة سواحل إسبانيا التي كانت مهددة بصورة مستمرة، «...بعد أن ثار مسلمو الأندلس على الحكم الإسباني الجائر، لذا جهّز خير الدين ستة وثلاثين جفنا فلما رأهم الأندلسيون خرجوا إلى ذلك الجبل...، ونزل أهل الأجفان من المسلمين وأتوهم من ورائهم... فأخذ الكفار في الفرار وتبعهم المسلمون، وبقيت عادة أجفان الجزائر أنهم في كل سفرة يسافرونها برسم الغنيمة يأتون إلى سواحل بلاد الأندلس برسم حمل جماعة المسلمين منها...»³⁷.

وقد أكد الأستاذ مولاي بلحميسي على أن المسلمين خلال القرن السادس عشر ركزوا في الجزائر على ضرب سواحل العدو، ومما ذكره، أن حسن آغا أنشأ إحدى وثلاثين غليوطة واشتد بذلك على أهل إسبانيا، واحتوى على كثير من أجفانهم، وعاث في أطراف سواحلهم، وقد استشهد في ذلك بصاحب كتاب الزهرة النيرة³⁸.

وحتى سواحل إيطاليا لم تسلم من عمليات الجهاد

لقد زادت نار العداوة والحقن على الكفار اشتعلا فنهض المسلمون من شواطئ الجزائر لضرب سواحل إسبانيا، وكعادته اعتمد الأستاذ بلحميسي على كتاب غزوات عروج وخير الدين لإبراز الطابع الديني الذي ميز الحروب البحرية بين المسلمين والمسيحيين النصارى من خلال ما ورد فيه بالتكبير، ونصر حزب الله، والتغلب على عدو الدين، هذا إلى جانب الاستشهاد بالآيات الدينية والأحاديث النبوية الشريفة²⁹، وكنموذج لذلك اعتماده على النصوص حرفية لمصدر الغزوات منها قوله: «..وقد أخلص عروج نيته في الجهاد بائعا نفسه لله تعالى هو ومن معه من المسلمين عملا بقوله تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون...»³⁰.

ويرى كذلك أن النزعة الدينية ظهرت في معاملة الأسرى النصارى، حيث كان المسلمون يرفضون الأموال المعروضة عليهم لإطلاق سراح الأسرى خاصة إذا كان للأسير جاه أو مال، وقد استشهد بكتاب الغزوات ومما جاء فيه ما يلي: «..أعلم النصارى خير الدين بوصول المال إليه فجمع فقهاء الجزائر واستفتاهم في ذلك، فاتفقت فتواهم على عدم جواز فداء الأسرى بالمال... وأفتوا بقتلهم حسما لمادة فسادهم، وما يحدث من مكايدهم...»³¹.

وما توصل إليه الأستاذ مولاي بلحميسي كاستنتاج هو أن اشتداد طمع السكان أنساهم الجهاد الذي يعتبر تضحية في سبيل الله، وتحول هذا الجهاد إلى رغبة في جمع المال و الثروة، لا أكثر ولا أقل وبالتالي ابتعد الناس عن المثل العليا، فصارت من الصنائع الرابحة تكسب صاحبها الشهرة والشرف والمال حتى وإن كانت محفوفة بالمخاطر³².

وعن تنظيم العمليات الجهادية البحرية يرى أنها كانت تتطلب استعدادات في منتهى الدقة منها صناعة المراكب، وتعيين رياس البحر وتجهيز الأجفان³³ وتزويدها بالموونة والسلاح، وهو ما زاد في عدد قطع الأسطول الجزائري ليرتفع عام 1571 إلى خمسين جفنا هذا خمس وثلاثين غليوطة



هوجزدي منكوا 1518م وهجمات شارل الخامس عام 1514م هذا إلى جانب حملات صليبية أخرى انكليزية وفرنسية وهولندية⁴⁴.

يضاف إلى هذه النتائج سيولة الأموال وتدفق الخيرات على مدينة الجزائر هذا إلى جانب اكتظاظ شوارعها بالأسرى الأجانب الذين استخدموا في العديد من المصالح، كما امتلأت بيت المال، فأصبحت الجزائر من أغنى مدن البحر المتوسط وهو ما فتح شهية العديد من الدول الأوروبية التي راحت تتربص بها وتتحين الفرص بالانقضاض عليها وهذا الذي حصل عام 1830⁴⁵.

إن دراسات الدكتور مولاي بلحميسي تدخل في إطار نفخ الغبار الذي علق بموضوع الجهاد البحري والذي مازال مطموسا، وما كتب حوله إلا النزر القليل لكون المصادر العربية المعاصرة له والتي يمكن الاعتماد عليها نادرة جدا، لذا كانت الكتابات الأجنبية المصدر الأوفر حظا من حيث الاعتماد وبالتالي استحوذت على حيثيات الجهاد البحري ومحاولة إلصاق كلمة القرصنة به ليفقد محتواه الديني، ويجرد من بعده الحضاري العربي الإسلامي.

وعليه فإن الغزو البحري أو الجهاد البحري يبقى موضوعا دسما يحتاج إلى دراسة أعمق من طرف المهتمين بالبحرية العربية على اعتبار أنه ميزة حضارية تعود أساسا للعرب المسلمين الأوائل انفرد بها سكان المغرب العربي في حوض البحر المتوسط خلال مرحلة من مراحل تاريخهم العربي المجيد.

البحري الذي كان يقوم به مسلمو الجزائر آنذاك والذين كانوا يعرفونها معرفة دقيقة منها مدينة نابولي، وقد تعرض البابا ليون العاشر عام 1516م إلى إحدى هذه العمليات الجهادية التي نجا منها وإلا كاد يسقط أسيرا في يد المسلمين³⁹.

كذلك محاولة خير الدين في اختطاف جيوليا فنزاقا وهي أجمل نساء إيطاليا آنذاك عام 1534، ورغم فرارها إلا أنه استطاع أسر مائة وخمسين أسيرا وحتى سواحل دويلة جنوة (Genova) الإيطالية لم تسلم من هذه العمليات الجهادية، حيث قام خير الدين بمهاجمتها⁴⁰.

وفي عام 1544 تعرضت جزيرة «ليس» Lis الصغيرة إلى النهب وحاصر الأسطول الجزائري خليج نابولي Napoli عام 1561م لمدة من الزمن وقد بقيت العمليات الجهادية ضد إيطاليا متواصلة إلى غاية 1571م⁴¹.

لقد ركز الأستاذ بلحميسي على سرّ تفوق المسلمين في حوض البحر المتوسط من خلال اعتراف المؤرخين الإفرنج أنفسهم بالبحرية الجزائرية، ويرجع ذلك إلى إيمان العرب المسلمين في المغرب العربي القوي بشرعية العمل البحري على أنه أولا جهاد بحري في سبيل الله، ثم هناك عوامل أخرى كانت وراء هذا التفوق منها السرعة في إنجاز العمليات الحربية ثم جودة السلاح المستعمل هذا إلى جانب الخبرة والشجاعة والجرأة، وكذلك المباغته، فكانت مراكب المسلمين تفاجئ مراكب النصارى معتمدة على الحيل منها استخدام المجاذيف عوض الأشعة⁴².

ومن أبرز نتائج الجهاد البحري الذي أسماه بالغزو تبركا بغزوات الرسول (ص)، يرى أنه مثال في الشجاعة والبطولة وهو بداية عصر ذهبي بالنسبة للمسلمين في ذلك الحقبة الزمنية. ومدينة الجزائر كانت من المدن العربية الإسلامية الساحلية التي تحملت عبء هذا الجهاد البحري بل كانت نواة رئيسية له، فهي كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء السعار وأمان الأقطار حسب ما جاء في كتاب صاحب الزهرة النيرة⁴³.

واستطاعت أن تردّ العديد من الهجمات منها حملات دياغودي فارا (Diego de Vara) عام 1516م وهجمات



الهوامش

- 1- من حواضر الجزائر القديمة، تقع بالغرب الجزائري، أنظر بالتفصيل، مولاي بلحميسي: تاريخ مازونة من الأصول إلى يومنا، الجزائر 1981. وأنظر كذلك، هاينريش فون مالتسان: ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1976، لقد خصص هذا الرحالة الألماني فصلا كاملا عن مدينة مازونة من ص 224 إلى ص 241.
- 2- هي اليوم ولاية من ولايات الغرب الجزائري، عرفت نهضة علمية وسياسية كبيرة، جعلها محمد الكبير باي وهران عاصمة له ومنها بدأت عملية طرد الإسبان من مدينة وهران، كما أصبحت فيما بعد عاصمة الأمير عبد القادر الجزائري ومنها كانت بداية مقاومته للاستعمار الفرنسي، ورد ذكرها في العديد من المصادر أهمها، محمد بن الهطال: رحلة محمد باي الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، وهو مخطوط حققه وقدمه محمد بن عبد الكريم، ط1، القاهرة 1969.
- 3- بوضرساية بوعزة: رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، دار الحكمة، الجزائر 2007 بداية من ص 76
- 4- حول مدينة تلمسان ومكانتها في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر أنظر بالتفصيل، محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984 بداية من الصفحة 127.
- 5- تأسست جامعة الجزائر 1909 على يد الإدارة الاستعمارية الفرنسية، كانت مخصصة لأبناء الفرنسيين الوافدين من فرنسا وأوروبا، أما أبناء الجزائر كانوا قلة ويعدون على الأصابع حول هذا الموضوع عد إلى الدراسة التي أعدتها الدكتورة مريم صغير بعنوان «الدراسات التاريخية خلال الفترة الاستعمارية» مجلة دراسات، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، العدد السابع 2007.
- 6- تناول الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء التاسع مجموعة من هؤلاء المستشرقين المستعربين الذين درّسوا بجامعة الجزائر.
- 7- بوضرساية بوعزة، المرجع السابق.
- 8- هناك أحاديث نبوية فضلت الجهاد والاستشهاد في البحر: شهيد البحر مثل شهيد البر لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز.
- 9- يتضمن إنتاج الأستاذ مولاي بلحميسي حول الموضوع على عدة دراسات جامعية نذكر منها:
 - الجزائر والغزو البحري في القرن 16. مجلة تاريخ وحفارة المغرب، عدد 1968/4.
 - غابة شارلكان على الجزائر 1541 بين المصادر الإسلامية
- والمسيحية، مجلة تاريخ المغرب عدد 6-1970/7.
- الحروب الصليبية على المغرب والمقاومة الشعبية. مجلة الجندي عدد 37 مارس 1980.
- هجوم رياس الجزائر على عاصمة إسلاندا (1627)
- 10- Mouley Bellahmissi; Marine et Marin d'Alger, 1518-1830, Bordeaux III, 1986, 3 tomes.
- 11- أطلقت تسمية المغرب الأوسط على الجزائر خلال الفترة الحديثة أو ما اصطلح عليه بالمغرب الإسلامي الذي كان يتشكل من المغرب الأقصى (المغرب)، والمغرب الأوسط (الجزائر)، والمغرب الأدنى (تونس)، وهناك مصادر عديدة استعملت هذا المصطلح منها، بن عبد الرحمن الشقراني: القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، ط1 دار الغرب الإسلامي بيروت 1991.
- 12- الغليوطة هي نوع من السفن الحربية التي كان يستخدمها الأسطول البحري الجزائري خلال القرون 16 و 17 و 18.
- 13- رياس البحر، مفرد رياس وهو القائد المكلف بقيادة السفينة بمعنى هو الأميرال، حول الموضوع أنظر مولاي بلحميسي: «رياس جزائري في مرسيليا في 1711»، المجاهد الجزائر 1986.
- 14- أبو الحسن علي بن محمد التمعروطي: النفحة المسكية في السفارة التركية 1591-1589. مخطوط بالملكية الوطنية بباريس تحت رقم 6898.
- 15- جاء ذكر الحملات العسكرية على الجزائر في العديد من المصادر والمراجع منها كتاب الدكتور جمال قنان: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1830/1500، عن وزارة المجاهدين، الجزائر 1987.
- 16- التمعروطي، المصدر السابق.
- 17- نفسه.
- 18- الإيالة نظام إداري عثماني أطلقه الباب العالي على الولايات والأقاليم التي كانت تحت السلطة العثمانية، منها إيالة الجزائر وإيالة تونس وإيالة طرابلس، حول الموضوع أنظر محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط6، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت 1988.
- 19- مولاي بلحميسي: الجزائر والغزو البحري في السادس عشر، ص 44.
- 20- عروج وخير الدين كتاب الغزوات، مخطوط بالملكية الوطنية بباريس، ص 6.



- 21- مولاي بلحميسي: «الجزائر والغزو البحري...» المرجع السابق، ص 24.
- 22- عروج وخير الدين المصدر السابق، ص 6.
- 23- نفسه.
- 24- بلحميسي مولاي: الأسرى الجزائريين في أوروبا المسيحية، الجزائر 1988.
- 25- Braudill; in revue africaine ,année 1928 p291
- 26- Demas Latrie; Relations et commerce de l'afrique septentrionale avec les nations chrétiennes au moyen age ,paris 1866,p181.
- 27- بلحميسي مولاي: الجزائر والغزو البحري في القرن السادس عشر المرجع السابق، ص 45.
- 28- نفسه.
- 29- نفسه.
- 30- عروج وخير الدين الغزوات، المصدر السابق، ص 39.
- 31- نفسه ص 40 .
- 32- بلحميسي: الجزائر والغزو البحري المرجع السابق، ص 55.
- 33- الأجفان مفرد جفن وهي أيضا نوع من السفن الحربية الصغيرة التي كانت في خدمة الأسطول البحري الجزائري، ورد ذكرها في عدة الكتابات حول البحرية الجزائرية في الفترة العثمانية منها تاريخ البحرية الجزائرية ما بين 1516 و 1830، الجزائر 1986 للدكتور مولاي بلحميسي.
- 34- نفسه.
- 35- البلدية بسكون اللام وكسر الدال ،وتعني سكان الحواضر والمدن الكبرى،الذين كانوا يساهمون في دعم الرياس ماديا ومعنويا.
- 36- بلحميسي :تاريخ البحرية، المرجع السابق، ص 41.
- 37- عروج وخير الدين، الغزوات،المصدر السابق ص 82.
- 38- صاحب هذا المصدر هو محمد بن محمد التلمساني.
- 39- عروج وخير الدين، المصدر السابق ص 82.
- 40- نفسه، ص 31.
- 41- اعتمد الأستاذ مولاي بلحميسي في ذلك على كتاب القراصنة المغاربة لسالفادور بونو: Salvatore, Bono: Corsari Barbaredhi, Torino 1964
- 42- بن محمد التلمساني: الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط بالملكتبة الوطنية الجزائر تحت رقم 1626.